يرجع إلى قلة المعلومات الأكيدة التي ترد عن مصر، وخاصة أن المقاطعة الثقافية جعلت الذي يصل منها أقل من القليل ومجبراً على المرور بدروب ملتوية. إلا أن ذلك التعارض يرجع أيضاً، في نظري ــ من بين ما يرجع إليه ــ إلى أن بعض الأصدقاء ابصروا ما كان يعكس في نفوسهم ورأوا ما يتمنونه خيراً ومجداً لبلدي، وعلى الصورة التي قد تتكون عادة في بلدانهم هم.

ومع اتضاح التباين، بدا وكأن غموضاً ما يكتنف مصر وشؤونها وتصرفات ابنائها، بل اعتبرت أحياناً لغزاً، تفسره «خصوصيتها». ولا ريب عندي في أن مجموعة من السمات النفسية ذات تاريخ طويل تميز الشعب المصري وتطبع بخاتمها حياته السياسية؛ وطبيعي أن مصر لا تنفرد دون غيرها بهذا، إذ لكل شعب خصوصيته في الحقيقة. ولكن هذه السمات المصرية ذاتها عناصر حيّة، وقد تغير بعضها قوة أو خفوتاً خلال العصور، ويمكن أن تكون شيئاً آخر غدا. وبطبيعة الحال، يتوقف الثبات أو التغير ــ ولو جزئياً ــ على عوامل اخرى من المستطاع ادراكها، وبالتالي التأثير عليها.

وبالاحرى، فان الالتفات إلى خصوصية **الظروف** المصرية، من حيث أنها متمايزة عن تلك الموجودة في بلدان عربية اخرى، قد يساعد حركة التحرر العربية على تحسين وسائلها وخطوطها الهادفة إلى اعادة مصر إلى صفوفها؛ بل يساعد على تقوية هذه الصفوف ذاتها.

١ ــ الجو منذ ١٩٧٧

لقد فوجئنا جميعاً ــ وأقصد اليسار المصري من ضمننا ــ بالحفاوة البالغة التي استقبلت بها مصر خطة السادات للسلام مع اسرائيل ابتداء من اواخر ١٩٧٧. حقاً، إن الأجهزة المصرية نظمت الكثير من الأشياء تنظيماً مرتباً: فتقررت اجازات رسمية للمدارس، ووزعت الساندويتشات على الأطفال، والمبالغ النقدية على البالغين، وعملت وسائل الإعلام المؤممة كجوقة واحدة مهولة حتى يشترك الجميع في المظاهرات المؤيدة. غير أنه كان من الواضح أن ما اصطنع بذلك الضغط جاء **مضافاً** إلى موقف حقيقي موجود عند الناس، وليس متعارضاً معه. وإذا كان بعض الأصدقاء في الصفوف الوطنية والتقدمية أرجعوا رأي الشارع المصري إلى عملية «غسيل المخ» الواسعة التي كانت تتم فحسب، غير أن هذا التحليل ضعف شأنه شيئاً فشيئاً مع تراكم الأدلة على عدم تطابقه والواقع تطابقاً كافياً.

وفي هذه الفترة المبكرة، قام فريق من الباحثين في «معهد الدراسات الاجتماعية والجنائية» في القاهرة باستبيان للرأي العام بطريقة العينة(*)؛ وكان من نتائج الدراسة أن أغلبية ساحقة من الردود في هذه النقطة أيدت سياسة السادات. ولكن الأهم لنا والأفيد هو الأسباب التي فسر المستجيبون بها مواقفهم: فجاء أولها في ترتيب الأهمية والغلبة ، أنهم يحبذون السلام لأنهم لا يريدون حرباً؛ وثانيها، أن ايقاف الحرب سوف يمكن

(*) المعلومات والانطباعات بهذا المقال من الذاكرة بطبيعة الحال. فنرجو المعذرة نظراً للظروف الخاصة.